الناس مايربو على كل تفاوت فى المواهب ، فتتباين به الأقدار وتتباعد فيه المراتب .

ومن أجلى مظاهر الإبانة فى تفاوت الأساليب ، وجودة التعبير ، وبراعة العبارة ، وإحكام الرصف — باب الوصف . فرب واصف يقرب لك البعيد ، ويرينا المعقول بصورة المحسوس ؛ بيد أنه كثيرا مايكون لطرافة الموضوع الذى يكتب فيه الكاتب ، أو عظمه وفخامته ، أو غرابة حوادثه — أكبر العون للكاتب على الإجادة ؛ ولكن البراعة الحقيقية تتجلى إذ يتناول الكاتب موضوعا مألوفا معتادا مرّ على كل إنسان ، ولاسيما فى حال الحداثة واللهو ، فلا يسترعى من إنسان نظرا ولا يستحق من مشاهد خبراً . وبماذا يخبر ؟ وماذا ينتظر ، وحوادثه متشابهة ، وكلها تافهة ، إذا استحق منها حادث التفاتا فليس إلا لأن مثله حقه أن يأتى من الكبير ، فهو مستظرف لصدوره من طفل صغير ؛ ولله من قال يخاطب رفيق صباة :

تذكر والحادثات بُله ... ليس لها ألسن حداد
ونحن فى مكتب المعالى ... يصبغ أفواهنا المداد

فهل كون حوادث الصبا بلهاء ، لاتلقى على أصحابها عبرة ، ولا تستحق منهم نظرة ، أمر غريب ؟ كلا ! هى دائما كذلك ، وهل فى صبغ المداد أفواه صبيان المكاتب غرابة ؟ لا لا ! كل أطفال

المكاتب كذلك . وما ساقها الشاعر إلا ليبرز طور السذاجة على أكمل معانيه وأجلى مظاهره .

هذا الطور من الحياة طور بسيط ساذج ، يمر على الجميع بصور متشابهة فى الجوهر ، مهما اختلفت فى الشكل ، وهى أيا كانت، ليس فيها ما يجذب السمع ، أو يسترعى الذهن، أكثر مما تلمحه من أنه كان طور السلامة من مشاغل الحياة وملاهيها ، فيسوق صورة من صوره الكثيرة لتجعله مثلا لبقيتها كما يقول المثل العامى : ما أهنأ أيامك يا جحا ؟ قال : أيام كنت أعبىء التراب فى طاقيتى (قلنسوتى) .

فإذا جاء كاتب فأبرز لنا هذا الدور من الحياة بصورة متماسكة متلاحمة ، وكوّن منها هيكلا حياً ، وإذا هو صورة حقيقية لما مر بنا جميعا واجتزناه كلنا بسلام ، وإذا هو دور طريف . ورواية جذابة، قد أخذت كل حلقة من سلسلته بوسط جارتها ، وإذا هو مطالعة لنفسية ، بل نفسيات دقيقة ، فيها المتشابه وفيها المحكم ،وفيها المتنافر ، وفيها المنسجم ، ولم يعدُ الواقع فى ذرة منها . بل جعل فى كل حلقة درة ثمينة ، تجتذب التفكير، تأملا فى مناحى النفس الإنسانية ، وأوضاعها الطبيعية ، ويجليها أنه يسير بك فى بستان من أزاهير الحوادث الصبيانية ، ودور الطفل اليافع، والمتعلم والمهمل ، أقول إذا عمد الكاتب إلى هذا الدور

الساذج من أدوار الحياة. وكوّن منه هذا الهيكل المتماسك الجميل، كان هو الكاتب المبدع حقا. بل كان هو الكاتب الفذ الذى لا يجارى، وكان مايقوله هو السهل الممتنع ؛ تنظر إليه فتراه بين يديك لا يتعاصى شيء منه عليك، فهو فى معانيه أقرب إليك من شعاع الشمس، فإذا ما حاولت أن تحاكى هذا الكاتب، وتنسج من معلوماتك مثل ما نسج من معلوماته التى ساويته فى مشاهدتها، بل فى ملابستها، كنت كمن يريد أن يمسك بيده شعاع الشمس، فما أبعده وما أقربه ؛ حقا هذا هو السهل الممتنع

هذا هو ماشهدته وشهدت به حين أطلعنى حضرة الأستاذ النابغة، الأستاذ محمد عبد الجواد على كتابه : « محمد عبد الجواد فى الجامع الأحمدى ».

سمعته منه فى مجالس، وكنت أحرص على دوام استماعه منى على تبادل الأنس به، على شغفى بمسامرته، ومناقلة الحديث معه فى شتى الموضوعات، التى تجمع بين الفائدة واللذة الفكرية.

لقد كنت أشعر وأنا أصغى للأستاذ أنه قد رجع بى إلى عهد الصبا، وأنى أسير معه من البيت إلى الجامع، وانتقل معه من درس إلى درس، أحضر مايحضر، وأسمع من الأساتذة ما يسمع، وأعانى ما يعانى من شظف مر بنا جميعا، وأغتبط بما يغتبط، من مباهج استمتعنا بها فى تلك الفترة من الحياة المؤلمة

الحلوة ، التى تشبه حياة العاشقين ، يستعذبون العذاب ، ويطربون لرؤية السراب ، ويتلذذون بتافه المأكل والشراب .

تالله لقد كنا كلنا ، محمد عبد الجواد ، وإن كان بعضنا فى الجامع الأحمدى ، وبعضنا فى الجامع الأزهر ، فلماذا اختصه الله بهذه الموهبة ، فانفرد من بيننا بهذه المقدرة ، فصاغ لنا من حياتنا صورة ناطقة ، ورواية صادقة ، بل أرانا أنفسنا فى مرآة صافية لا تقتصر على إبداء ملامحنا وجوارحنا ، ولكن صوّر لنا نفسنا ، فرأينا نفسنا ، وجلى لنا مشاعرنا وإحساسنا ، وآلامنا وآمالنا ، وجمع لنا فى لمحة نقرؤها فى لحظة ، حياتنا فى حقبة من الدهر ، تناهز من السنين العشر أو فوق العشر .

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

نعم ، قد أخالف الأستاذ فى بعض آرائه ، وبخاصة فى رجال التعليم وطرقه ، ورجال التصوف وطرقه ، ولكن هل هذا يحول بينى وبين الإعجاب به ، والإجلال وعظيم التقدير له ؟! إنه فى نظرى الرجل القدير ذو الشأن الخطير . وكفى .

أسأل الله أن يهبه من الصحة والنشاط ، ما يمكنه من مواصلة هداياه وهديه لأمته ، إنه سميع مجيب .

فى الجامع الأحمدى

صفحة ثانية من تاريخ التعليم بمصر[1] ، فيها صورة وصفية للدراسة فى الجامع الأحمدى (أحد معهدى التعليم الدينى الاسلامى بمصر ، والآخر هو الأزهر الشريف) ، تكشف عن حال طلابه ومعيشتهم ، فى الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجرى أو الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى .

[illegible] هذه الصورة التى ترى فيها ملامح شخصية ، نقوش أو رسوم من الحالة النفسية والاجتماعية التى كان الكاتب مغمورا فيها . فالمؤرخ الذى يكتب فى التاريخ صفحة ما ، لابد له من أن يصنع لها إطارا من الملابسات التى كانت تحيا فيها تلك الصورة ، حتى تظهر ناصعة بالمظهر الطبيعى اللائق بها . على أنه يجب على من يحاول وصف عقلية من العقليات ، أن يمدها بألوان من البيئة التى فيها نشأت ، ويشير إلى بعض الأحداث التى بمرآها تغذت ، وعلى ضوئها اهتدت ، ويحيطها بمجموعة الأفكار والمعتقدات التى منها استقت وترعرعت . أليست العقلية كناشة من صور اجتماعية تنعكس وتجتمع فى بؤرتها ؟!

---

(١) الأولى « فى كتاب الغربة » .

أليس فكر المرء خلاصة تمثيلية ، تتمثل فى أساليب تفكيره ما مر به من أحداث ومشاهدات ، نتيجة لهضم وقائعها ، وأثراً من آثارها فى نفسه ؟! ولولا ذلك لما افترقت العقليات ، ولما تباينت الأفكار والآراء ، ولا تحد الأشخاص فى طريق تعقلهم ، مهما اختلفت بيئتهم ، وهو محال !

كيف يغفل هذا الطالب ، وهو يرتل علينا آيات حياته بالجامع الأحمدى — وصف المزارات والموالد وما يشاهد فيها ، وذكر النذور والهدايا وتغلغلها فى نفوس العامة ، واهتمام الناس وطبقات الشعب بها ؟!

أو كيف يذكر الدراسة فيه وما يتعلق بها ، بدون أن يعرض إلى ما يرتبط بالجامع وما فيه ومن فيه ، وإلى ما كان يحدث حوله أو فى داخله ، وما يكتنفه من شتى الصور التى أظلته ؟!

كل ذلك فى نظره ، من أوضح الأهداف التى يصح أن يرمى إليها ، إذا أراد أن يكل الاستنباط والتعليل إلى المكان لا المكين ، والزمان لا المزمون !

ولعل القارىء يغفر له خطيئته بإقحام شخصه فى هذه الدراسة . فقد كانت حياة غريبة ، لا تخلو دراستها من المتعة واللذة ، وفيها شىء من الفائدة والدراسة النفسية (السيكلوجية) ؛ تجلى فيها ظلم المشرف لمن تولى الإشراف عليه . ولم ينفع فيها توجيه ولا إرشاد.

حياة كانت صراعا بين الميل الشخصى والتحكم فى التوجيه العلمى .
حياة فيها الحرية المطلقة من ناحية . مع قيود من الاستبداد والاستعباد يرسف فيها هذا العقل الحر من نواح أخرى ؛ حياة ارتجالية عبثت يد الزمان بخطط التربية التى رسمت لها ؛ فكانت تربيـة بين الشدة واللين ، وبين القوة والسياسة ، وبين المد والجزر ؛ وإجمالا : حياة كانت ملتقى المتنافرات والمتناقضات !!

ما أردت بهذا مناقشة مبدأ . أو بحث قاعدة ، ولـكنى أريد أن ألقى بها سؤالا على مسامع الزمن، وأطلب من مبادىء التربية الإجابة عليه ! إنها لحياة جديرة بالدراسة ! يرسم الوالد لتعليم ابنه خطة ، فتحول ظروف قهرية بينه وبين تنفيذها ، ويظهر ميل الطالب واضحاً إلى الخروج عن المألوف فى الدراسة ؛ ويأتى بالمعجزات فى تحطيم الأغلال التى تقيده ، ولا يقف حرص الوالد الشديد أمام إسراف هذا الولد فى إشباع ميله ورغباته ، من ثقافة كان يراها أبوه عائقاً عن تحصيل العلم فى نظره ، وتأبى الأحداث والملابسات إلا أن تساعد على نصر أحد الطرفين المتنازعين !

وأخشى أن أكون قد أسرفت فى تمسكى بالصراحة المقذعة ، فى وصف حالى ومعيشتى ومعيشة من كان معى من المجاورين ! ! وقد يرى بعضهم فى ذكر هذه الحقائق غضاضة ، أو يشمئز منها بعض كبار العلماء ، وهى لا تعدو كونها وصف حياة سابقة كانوا يحيونها حقا ! !

وقد يعجب أبناؤهم المترفون : كيف كان أباؤهم يعيشون تلك المعيشة ، أو نشئوا تلك النشأة ، وهم الآن يخبون فى النعيم ، ويرتعون فى بحبوحة الرغد والرفاغة !! وهذا بعض ماسمعت من بعض الأصدقاء عند اطلاع أبنائهم على ما وصفنا فى « كتاب القرية » . ولكن أين كنا من الطلبة السابقين ، ومشايخ الإسلام الأجلاء الأقدمين ، ولنا فيهم أسوة وقدوة ؟! فقد تواترت الأخبار على أن كثيراً من طلبة العلم قبلنا كانوا يقتاتون بقشر البطيخ الملقى فى الحوارى والشوارع ، وأن شيخ الإسلام (فلان) طردته امرأة أبيه من بلده فلجأ إلى طلب العلم فى الأزهر ، وأن شيخ الإسلام (فلانا) غادر قريته وعلى كتفه سوط المحراث (الفرقاله) وهبط القاهرة ، فقابله ابن البلد القاهرى وقال له هازئاً « تقدم ياشيخ الإسلام » فسكأنما كانت مكتوبة فى اللوح المحفوظ ! وطالما افتخر هؤلاء ومن على شاكلتهم بنشأتهم ، وذكروا من أساء إليهم بالرحمة وطلب المغفرة ، إذ حسنت آثار إساءتهم !!

وليس عندى من الأعذار إزاء هذا الاعتراض — إن صح أن الأمر يستوجب المعذرة — إلا أنى أسرد وقائع ، وأسجل مناظر ومشاهد ، لم يذهب بوضوحها فى ذهنى نصف قرن من الزمان ! فإذا كان مرّ السنين الذى يُنسى ويفنى ، لم يستطع تحويرها فى ذاكرتى ، فكيف يغيرها أو يشوهها قلمى ، وهما

أميناى على كل ما أعى وأتذكر . وأكتب وأصف ؟! على أن أى تعديل فى تلك الصور قد يدخلها فى دائرة « الكذب » حمانا الله منه ! خمس وأربعون سنة كاملة لم تشبع من أذنه صوت بائع الترمس وهو يمر غرب الجامع بعد العصر منادياً : يالوز امبابه يا ترمس ! وإن هب ريح العصارى افتكرت الأهل و بلادى ! فيطرب لصوته وهو يدوّى بالجامع ، وتذكّره صفرة الشمس ، أو الأصيل ، بالبعد عن الأهل ، والاغتراب فى طلب العلم !

ومهما كانت هذه الصحائف ومحتوياتها ، فهى مشاهدات طالب فى عشر سنوات كاملة قضاها بطنطا ، وهو حاد السمع والبصر ، دقيق الحس والوجدان ؛ يسجل بها للتاريخ حقائق عاش فيها ، ويصف معارك للحياة خاض غمارها ، ومجتمعات خب فيها ووضع ، وشهد أحداثاً سير غورها ، وتلطخ بحمأتها ، إذا صح هذا التعبير ! وهو يكتبها موزونة بالميزان الذى كانت فيه وقتها ؛ فهو يحصى كل الحسنات والسيئات ، الحسنات فى نظره ، والسيئات فى ظاهرها ، وإن انقلبت فيما بعد إلى حسنات ! فلا ينسى لناصح (خياط) وقف بجانبه أمام المراحيض ، أن تناول إبرته من عمامته ورتق بها فتقا كان فى طوقه من أثر شيطنة الشباب ، ولا يزال يتمنى أن يعرف أحداً من أبنائه ليرد له جميل هذا التطوع ولو بعد نصف قرن من الزمان ! كما أنه يتناسى إساءة من قطع صلته

بالمعاهد الدينية . قسرا وبكل وسيلة ، فيوجهه الله هذا التوجيه الغريب !

ولم يفته أن يشير إلى الأفكار المتعلقة بطلب العلم فى غير الأزهر ، صواباً كانت أم خطأ ، لأنها كانت شائعة فى ذلك الوقت ، ولكل عصر فى التربية روح خاص .

ولقد تعمدت ترك نقد أساليب التعليم والدراسة فى الجامع ، فوكلته إلى وصفها الدقيق ، وإبراز صورها بجرعة ناطقة لا غبار عليها ، إجابة لاستيلاء مشاهداتى على مشاعرى .

ولعل الآباء من القراء يحسون شيئاً من الاستبداد الذى تعرضت له فى حياتى العلمية ، ويدركون أثر الضغط الذى وقع علىّ من تولى شأنى فى مبدأ غربتى ، لشدة معاملة والدى ! وإذا كنت قد استطعت التصريح بشىء منها فى أيام الكُتاب ، فقد كانت وطأتها أشد فى أيام المجاورة ، لما ظهر ممن تولوا زمام قيادتى . وللوالد رحمه الله بالغ العذر فى ذلك : فالدراسة بالمعاهد كانت تسير على غير هدى ، ولا تخضع لنظام ؛ وكان حريصاً على أن يحوط ابنه بعناية ليس بعدها عناية ، حتى لا يقطع زمنه فى اللهو واللعب ، بدون رعاية من هو أكبر منه ، فلا يعود ابنه — كما عاد هو — من طلب العلم بدون أن يبلغ الهدف الذى كان يرمى إليه ! غير أن كل شىء يزيد عن حده ، ينقلب إلى

عنده ؛ فلم يرد الله لهذا الفتى الضعيف أن يبقى طويلا تحت نير الوصاية ، بل استقل بشأنه ، بعد أن اضطر إلى الثورة على وليه المستبد . ووصيتى إلى الآباء الذين يضعون أبناءهم فى رعاية غيرهم ، ألا يكلوا أمر أبنائهم لمن هم أقوى منهم إلا بمقدار ، وألا يطلقوا لهم العنان فى تأديبهم بقسوة ، وألا يصغوا إلى وشاياتهم ليستديموا بذلك أمر قوامتهم .

ولست أدرى أكان من حسن الحظ أم من سوء ، أن الله لم يرد أن يتم ذلك المنهاج الذى رسمه أبى لدراستى فى طلب العلم ، بغية حصولى على شهادة « العالمية » ، فتخبطت فى دراسات مختلفة ، وترددت على معاهد متباينة ، غير المعاهد الدينية ، منها دار العلوم وكلية الحقوق ، وسأسجل لكل منها حقه فى تكوين هذه الشخصية العجيبة إذا طال الأجل ، وشاء المولى القدير .

والحمد لله على توفيقه والشكر لكل من ساعد فى الإدلاء بأية معلومات ندّت عن دائرة علمى والله بكل شىء عليم ؟

ربيع الأول سنة ١٣٦٣ هـ
مارس سنة ١٩٤٥ م

محمد عبد الجواد

إلى الوراء = إلى الأمام

من لا خير فيه لماضيه ، فلا خير
فيه لحاضره ولا لمستقبله !

عجبا عجبا ! يقولون دائما إلى الأمام ، وأنت تقول إلى الوراء ! فما هذا التناقض ، بل ماهذا القلب والعكس ؟ ! والأعجب أن تعتقد أن الثانية تعدل الأولى ! هل تريد أن السائر فى طريق هامة أو غير مألوفة ، أو فى طريق جديدة ، ينظر خلفه ، كما يرى أمامه ؟ هل تريد أن ينتفع بما رآه ، عندما يسير فى طريقه المقبلة ؟ لعلك ترى أن التاريخ الحديث لا يستغنى عن التاريخ القديم ، إذ « التاريخ يعيد نفسه » !

هذا الطفل أتم دراسته فى الكتاب ، وهو يُعد نفسه أو هم يعدونه ، للسفر إلى طنطا عاصمة إقليمه . وللدراسة فى « الجامع الأحمدى » ، كى يتلقى صنفا آخر من التعليم ، إن اختلف عن سابقه فى شكله فهو حلقة من سلسلة متحدة فى موضوعها ! لا بد له من استعراض صور معهده الأول ، ليقيس عليها مستقبل دراسته فى المعهد الثانى ، فهو هو لم يتغير ؛ ولذلك يعتقد أن معهده الجديد لا بد أن يكون صورة مكبرة إن لم تكن مساوية للمعهد القديم ، أى أن دراسته فى الجامع لا تزيد كثيرا على دراسته فى الكتاب .

ولكن مالنا وهذا التفكير الصبيانى . أو هذا المنطق الحيوانى؟ إنك تريد شيئا آخر يجدر التصريح به ! إن المفاضلة بين « القديم » و « الحديث » موضع نزاع بين « المجددين » و « المحافظين » الذين يدعون « الرجعيين » ؛ فلعلك تشير إلى مايزعمه قوم من أن معنى التجديد النظر إلى الأمام فقط ، ومعنى المحافظة على القديم التمسك به ، وفرضه على الجيل الحديث ! وهم - من أجل ذلك - يحقرون القديم ، وقد يحرمون النظر فيه والاشتغال به أو تسجيله ، معتقدين أن الذى أغناه الله من فقر ، لا يصح له أن يفكر يوما فى حاله الأولى ، بل يجب أن يشتغل بثروته الحديثة ، ولا يذكر قديمه وما كان فيه من بؤس ! وهم فى رأيهم هذا واهمون !

كأن قارئا ذكيا يقول : هذه مقالة بلا عنوان ، أو عنوان بلا مقالة ، فلماذا أجهدت نفسك وأتعبتنا معك فى هذه الطريق الملتوية ، تحاول أن توضح عنوان المقالة ، فلا تزيده إلا إبهاما ، وتريد أن تفسره فلا تزيده إلا غموضا ، وتود أن تجعله يقينا فلا أخرج من المقالة إلا متشككا ؟! وإليك أيها القارىء مايدور بخلدى : إنما أبغى دفع اعتراض بعض القائلين : مالهذا الرجل يضيع وقته فى تسجيل صور قديمة قد تكون غير مشرفة ، ويكتب تاريخا ننظر اليه الآن نظر حديث الغنى إلى زمن فقره السابق ، ويؤثر بالتخليد هذه الحوادث البالية ، على صور الرقى

والتقدم الحاضر ؟ ! ماله يكرس وقته ،ويجهد فكره ، فى استعادة تاريخ عتيق بال ، وهو ليس من الطرافة بحيث يستلذه القارىء ، ولا هو من أنواع التسلية المحبوبة ؟ ! لماذا يعيدنا مرة إلى «الكُتاب» و« الفقيه » وعصاه و « فلقته » ، ثم يعود فيستعرض «الجوامع» والدراسة القديمة فيها ، فيصف لنا معيشة البؤس التى كان يعانيها «المجاورون» فى أكلهم وشربهم ، ونومهم ودراستهم ، وفى غدوهم ورواحهم ؟ !

ولكن لا ! مهلا أيها المعترض ! للقديم علينا حق دونه حق الحديث ! فلست أريد من استعادة ذكرى القديم ، أن أوحى بالتمسك به ، أو أرفض الانتفاع بالحديث دونه ! بل إنى أسجل القديم لدراسته والانتفاع بما كان فيه من مزايا ، ولمجانبة مافيه من مآخذ ومثالب . حقا إن علينا أن ندرسه ، لنتخذ منه أسسا للتجديد ، فكل جديد لا يقوم على أساس من دراسة القديم ، يكون كالصرح يبنى على غير أساس ، أو على أساس غير متين ! وليس فى استطاعة مخلوق أن يقرر أن القديم كله عيوب ،وأنه لا يصلح إلا للنسيان !

ويكفينا للبرهنة على قيمة « القديم » أن نرى فى مصر طائفة ممن تخرجوا فى « المدرسة القديمة » قد علا شأنهم ، وطار صيتهم ، وهم رجال أشداء على الزمن ، مارسهم فمرسوه ، شقوا طريقهم

بين الصفوف ، ورفعوا أنفسهم فوق الهام ؛ وهيهات أن يمدنا « الحديث » أو « المدرسة الحديثة » بمثل هؤلاء الرجال القادة المحنكين !

وإياك أن تظن أنى أحاول تفضيل القديم على الحديث ، بل إنى أبرر ماأعمل من تسجيل شيء عنه ، وماتصرفه أنت من دراسته ؛ فالقديم وسيلة لاغاية ، والحديث مقصد ، لانهاية وللوسائل أهمية قد تفوق ماللمقاصد والغايات .

وقول « طاغور » شاعر الهند « إن الماضى يحتوى الحاضر والحاضر يفسر الماضى » يوضح مانقصد إليه من هذا المقال . ونحن معه أيضا فى قوله « وقر الماضى ولا تعش فيه [1] »

---

(١) مجلة الرسالة عدد ٣٧٩ سنة ١٩٤٠

الجامع الأحمدى لا الأزهر الشريف

فى المنزل حركة غير عادية ، شملت ربّ البيت ، والصغار والخدم ، فربة البيت (رحمها الله) مشغولة فى إعداد « طحين القمح » ، ولا يؤلف ذلك عند أهل الريف إلا لمناسبة الأفراح أو الأتراح ؛ وهذه الأسرة لم تعتد العناية بهما . فأيام الأفراح عندها دون الأيام العادية ، مظهراً وشكلا واهتماماً ، وليس لديها — ولله الحمد — من الأتراح ما يدعوها لهذا الاستعداد . وكل ما هنالك أن السيدة « أم السعد » تجهز ابنها البكرى لغياب طويل الأمد ، ومعيشة بين رفقة من طلبة العلم كلهم غرباء عن أهليهم ، وتريد أن تزوده بزاد ممتاز من « الخبز الخاص » المتخذ من دقيق القمح الخالص ، لعل ذلك يعوضه فى تغذيته — إبان غربته وبعده عنها — ما سيفوته من رعايتها ، ومن مختلف أصناف الطعام التى كان يتغذى بها وهو فى حضانتها .

أما رب الدار (رحمه الله) فنهمك فى المقابلات والمشاورات ، فابنه هذا فى منتصف الثانية عشرة من عمره ، لم يعوده الغربة ، ولم يسمح له بارتياد القرى والكفور ، فى الموالد والأعياد ، كما يفعل أترابه ولداته ، ولا بد من أن يضعه فى الجامع تحت كنف طالب أكبر منه ، يرعى شئونه ، ويحول بينه وبين اللعب

الذى اعتاده فى « الكُتاب » وكان له فيه مع والده وقائع مسجلة فى مطاردته ، ويحمله على الجد والمذاكرة ، ويرشده إلى ما فيه مصلحته ، عملا بنتائج خبرة الوالد السابقة .

وهذا الشيخ أبو الفتوح (رحمه الله) جاء إلى المنزل ومعه والده وجماعة من قدامى الطلاب المتخلفين ، يرجون عمهم الشيخ « سيد احمد » فى تغيير رأيه فتكون رحلة الطلاب إلى « الجامع الأحمدى » لا إلى الأزهر الشريف ؛ لأنه كان يرى أن يكون طلبهم العلم فى الأزهر ، لسابق صلته به ، ولأن أفق العلم فيه أوسع ، وشيوخه — فى نظره — أجل وأعلم ، وفنونه أكثر وأطول ، وبعدهم عن البلد يساعد الطالب على عدم التردد إليه ، ويجعل صلته بالعلم والعلماء أوثق ، وإجمالا يحمل الطالب على الاجتهاد فى درسه والالتفات إلى عمله . وكان « أبو الفتوح » قد سبق له الحضور فى الأزهر ، ورجع منه فى حادثة « ضرب الرصاص » فى ٧ يونيه سنة ١٨٩٦ حينما أراد رجال الشرطة المصريون بقيادة بعض الأوربيين أن يدخلوا الأزهر للتحقق من الاحتياطات الصحية ضد الطاعون ، فاعتدى عليهم المجاورون . وهو من ذلك الحين مضطرب ، ويرى فوق ذلك أن « الجامع الأحمدى » أقرب مسافة ، وأقل كلفة ، ويستحسن أن يكون السفر إلى طنطا مدة ، نرحل بعدها إلى الأزهر الشريف لإتمام الدراسة هناك .

كل هذا والصبي لا يعرف من أمر الأزهر ولا من أمر الجامع الأحمدي شيئاً ، اللهم إلا مايدركه من أن « الكُتاب » قد حفظ فيه القرآن ، وأن موضوع الدراسة المقبلة هو « المتون » التي سبق له حفظها في السنة الأخيرة منه ، بعد متن « تحفة الأطفال » و « الجزرية » في التجويد ، من مثل « الآجرومية » و« أبي شجاع » و « السنوسية » و « الجوهرة » وما إليها من المتون التي كان يسبق حفظها الذهاب إلى المعاهد الدينية في ذلك الوقت .

ولم يعزب عنه ما كان يصغي إليه أحيانا من حديث الخادم ، أو الفلاح العامل في الحقل ، أو المُزارع ، كما كانوا يسمونه . كان يصور له الشيخ في الجامع كالفقيه في الكُتاب ، ويصف له ماشاء خياله أن يمده به من قسوته ، ويطنب في وصف عصاه ، والشدة التي يعامل بها الطلبة الذين لا يحفظون ! كما كان يخبره بشيء عن اقتصاد المجاورين ومعيشتهم ، ويسدي إليه النصح بالمحافظة على نعله خاصة حتى لا يسرق منه في الجامع . وكأن هذا المزارع كان يحس منه النفور من هذا المكان الجديد ، الذي يعود فيه للعصا و « الفلقة » ، مضافا إليهما « المقرعة » ، فيزين له مزايا « المجاورة » من أكل « الطعمية » والحلوى « الطحينية » وغيرهما ، مما كان في نظر الأطفال فاكهة لا يرونها إلا في سوق « الخميس » أو في الموالد والأعياد ، ومما لا يمكن الحصول عليها إلا بالنقود ، وقلما كانت

تقع فى أيدى الأطفال إلا فى يومى العيدين الصغير والكبير . أما وصفه للكعك و « القراقيش » وما يصنع مع « الزوّادة » فأمر يشجع هذا الطالب الصغير وأمثاله ، على أن يتمنى أن يكون « مجاورا » ليتمتع بتلك المزايا الفخمة .

على أن زيارته للكُتاب أصبحت اختيارية ، وقد صار منه طليقا ، بعد أن كان يرى فيه سجنا أبديا ، وأصبح مركز الفقية منه مركز صداقة ، بعد أن كان عليه حاكما مستبدا . وهذه — فى نظره — ميزة أخرى ، كان يقدرها قدرها .

وما كان أشد فرحة هذا الطفل حينما علم أنه عند ما يكون مجاورا لا يمشى مطلقا حافيا عارى القدمين ، بل يكون منتعلا دائما ، وقد كاد يطير من الفرح حينما رأى أن جلبابا من صوف كشميرى قد أعدّ له ليسافر فيه !

وهكذا نظر الولد إلى هذه الرحلة نظرة مادية ، خففت عنه ما علق بذهنه من شبح الشيوخ ، الذين هم فقهاء مكبرون أو محرّفون . وهو على كل حال لم يكن له الخيار فى أن يرحل أو لا يرحل ، بل هو مُسَيَّر لا مخير ، إلا فى الأخيلة التى توحيها إليه أفكار من يحدثونه فى حياته المقبلة ، حديثا مسيئا حينا وسارًّا أحيانا ، فلا يفترض إلا أن تكون الحياة الثانية ، حياة الجامع

أو المجاورة ، أخف كثيرا من حياة الكتاب، وهو لذلك مطمئن، وهو مستريح مسرور .

نترك الصبي يفرح بما أعد له من خبز خاص « مُلَدَّن » وما معه من فرنى (قراقيش) وغيرها ، ويبتهج بملابسه الجديدة . ونعود إلى مجتمعات الوالد فى المفاضلة بين الأزهر والجامع الاحمدى . فيتغلب الفريق الثانى على الوالد ، ويرى أن لا مانع من ذهاب « محمد » مع الشيخ « أبى الفتوح » وزميلين آخرين إلى طنطا مؤقتا . وهكذا أراد الله أن يرحل هؤلاء الطلاب الأربعة إلى الجامع الأحمدى ، وأن يمكث فيه هذا الطالب أحد عشر عاما هجريا دراسيا ، ينقل بعدها إلى الأزهر مرغما ليقضى فيه شهورا ، ثم يدخل « دار العلوم » نتيجة لأحداث هامة فى حياته ، ترى بعضها فيما بعد .